مقصد صلاح الإنسان في القرآن الكريم

د. إبراهيم علي عيبلو*

تمهيد

لقد ظهر من خلال تقسيمات مقاصد القرآن أن جميعها تتغيّا غاية واحدة، هي: تحقيق صلاح الإنسان، وأن هذا الصلاح شامل للفرد، والمجتمع، والعالم.

ويأتي الصلاح الفردي في مقدمة مقاصد القرآن الإرشادية؛ إذ الفرد هو اللبنة الأولى لبناء المجتمع، ومن بعده العالم، فلا صلاح لكل منهما إلا بصلاح الفرد واستقامة أحواله على منهاج الشريعة؛ لهذا اعتنى القرآن – عناية خاصة – بإصلاح أحوال الفرد العقلية والنفسية والجسمية؛ إذ الفرد في تصور القرآن عقل وروح وجسم، كما راعى القرآن في منهجه الإصلاحي الموازنة بين حاجات الفرد الظاهرة والباطنة، ومختلف نزعاته، سواء الروحية والمادية منها، أو الفردية والاجتماعية، فلم يغلب جانباً على آخر، ولم يُلغِ أحدهما على حساب الآخر، مراعياً في ذلك الوسطية والاعتدال وملاءمة فطرة الإنسان، وبذلك جاء إصلاح القرآن للفرد شاملاً ومتكاملاً ومتجانساً.

هذا وقد ظهرت عبر التاريخ اتجاهات فكرية وفلسفية، تهدف إلى تحقيق صلاح الإنسان، غير أنها لم تفلح في ذلك، بسبب النظرة القاصرة لحقيقة الإنسان، وعجز المناهج الإصلاحية المعتمدة في ذلك، فبعضها نظر إلى الإنسان ككيان روحي خالص، فاقتصر في إصلاحه على الجانب الروحي، وبعضها نظر إليه ككيان جسمي خالص، فاقتصر في إصلاحه على الجانب المادي، وبعضها نظر إلى الفرد على أنه الأصل في الوجود، فغالى في إطلاق حرياته وحقوقه على حساب الجانب الاجتماعي، وبعضها نظر إلى أن المجتمع هو الأصل في الوجود، فألغى شخصية الفرد وأهمل حقوقه، بينما أعطى كافة الامتيازات للمجتمع، ونتيجة لتلك الاتجاهات المتنافرة

* كلية التربية ـ جامعة مصراتة ـ ليبيا.

والمتناقضة، جاء إصلاح الإنسان منقوضاً وعاجزاً عن تحقيق أهدافه المتمثلة في الخلافة، والعمارة، والعبادة؛ لذا يأتي هذا البحث ليكشف أهمّ مقصد من مقاصد القرآن، المتمثل في تحقيق صلاح الإنسان، كما يأتي لإبراز معاني الصلاح والإصلاح، وأهم الاتجاهات الفكرية في إصلاح الفرد مقارنة بالقرآن، مع نقد تلك الاتجاهات، وبيان آثارها السلبية في الإصلاح، وقد قسمت هذا البحث إلى مبحثين:

المبحث الأول: حقيقة الصلاح والإصلاح، والفساد والإفساد، وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: حقيقة الصلاح والإصلاح، والفساد والإفساد.

المطلب الثاني: تحقيق الصلاح هو المقصد الأعلى لجميع الأديان.

المطلب الثالث: الصلاح المقصود شامل للفرد والمجتمع والعالم.

المبحث الثاني: مقصد صلاح الإنسان في المنظور القرآني، وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: صلاح الإنسان مقصد قرآني ثابت بالاستقراء.

المطلب الثاني: وسطية القرآن في تحقيق صلاح الإنسان.

المطلب الثالث: المبادئ القرآنية لحفظ الحقوق الفردية والجماعية.

المبحث الأول

لقد تبين من خلال تقسيمات مقاصد القرآن أن جميعها تهدف إلى تحقيق غاية عليا ألا وهي صلاح نوع الإنسان، كما عبر عنها الإمامان المصلحان محمد رشيد رضا [1]، وابن عاشور [2]، وأن هذا المقصد الأعلى من نزول القرآن يشمل ثلاثة مقاصد عامة، هي: الصلاح الفردي، والصلاح الاجتماعي، والصلاح العالمي، وأن كل مقصد عام منها يشتمل على مقاصد خاصة نظمتها ورتبتها حسب ما ذكره العلماء.

فالصلاح هو القاسم المشترك لجميع مقاصد القرآن، الجزئية، والخاصة، والعامة، وبه يتحقق كمال الإنسان وسعادته في الدنيا والآخرة، وبغيره يؤول حال الإنسان إلى الفساد والهلاك والشقاء في الدارين.

من هنا كان لابد من التعرف على معاني الصلاح، والإصلاح، والفساد، والإفساد، واستقراء النصوص الدالة على أن تحقيق الصلاح هو المقصد الأعلى من نزول القرآن، وأن الصلاح المقصود شامل للفرد، والمجتمع، والعالم، وأن مقصد الصلاح مهيمن على سائر المقاصد الشرعية؛ لذا يتناول هذا المبحث بالدراسة والتحليل أهم الأفكار المتعلقة بمعاني الصلاح والإصلاح، فما المراد بالصلاح والإصلاح ؟ وما معنى الفساد والإفساد ؟.

المطلب الأول

حقيقة الصلاح والإصلاح، والفساد والإفساد:

الفرع الأول: معنى الصلاح، الصلاح مشتق من: صلَح، يصلح، صلاحاً، وصلوحاً، ومعناه: استقامة الحال على ما يدعو إليه العقل والشرع [3]، والصلاح:الاستقامة، وضده:الفساد، والصالح: الخالص من كل فساد [4].

وعرفه ابن عاشور بقوله:"الصلاح تمام الاستقامة في دين الحق"[5]. أي: الاستقامة وفق الدين الصحيح.

وعرف الاستقامة بأنها:"العمل بكمال الشريعة بحيث لا ينحرف عنها قيد شبر"[6].

وعرف العمل الصالح بأنه:"العمل الذي يصلح عامله في دينه ودنياه صلاحاً لا يشوبه فساد، وذلك العمل الجاري على وفق ما جاء به الدين"[7].

والصالحات:"جمع صالحة، وهي الخصلة والفعلة ذات الصلاح، أي: التي شهد الشرع بأنها صالحة... ومراجعها – أي الصالحات – مما يعود إلى تحقيق كليات الشريعة وجري حالة مجتمع الأمة على مسلك الاستقامة، وذلك يحصل بالاستقامة في الْخُوَيْصة، وبحسن التصرف في العلاقة المدنية بين الأمة على حسب ما أمر به الدين أفراد الأمة"[8].

والصالحون:"هم الذين صلحت أنفسهم بالإيمان، والعمل الصالح"[9].

من مجموع هذه التعاريف للصلاح، والعمل الصالح، والصالحات، والصالحين، يمكن استنتاج تعريف جامع للصلاح، هو:"الاستقامة التامة على منهاج الشريعة في الأصول والفروع".

والمراد بالاستقامة التامة: الالتزام الكلي، والمراد بمنهاج الشريعة: أن المرجع في معرفة الاستقامة المؤدية للصلاح هو: الشرع، والمراد بالأصول والفروع: شمول الاستقامة والالتزام بأصول الشريعة العقدية وفروعها العملية.

الفرع الثاني: معنى الإصلاح، الإصلاح: نقيض الإفساد، وأصلح الشيء بعد فساده: أقامه [10]، وأصلح في عمله أو أمره: أتى بما هو صالح نافع، وأصلح الشيء: أزال فساده، وأصلح بينهما: أزال ما بينهما من عداوة وشقاق [11]، وإصلاح الله الإنسان يكون تارة بخلقه إياه صالحاً، وتارة بإزالة ما فيه من فساد بعد وجوده، وتارة يكون بالحكم له بالصلاح [12].

وعرفه ابن عاشور بقوله:"الإصلاح ضد الفساد، أي: جعل الشيء صالحاً، والصلاح ضد الفساد، يقال: صلح بعد أن كان فاسدا، ويقال: صلح بمعنى وجوده من أول وهلة صالحاً، فهو موضوع للقدر المشترك"[13]، وقال:"الإصلاح معناه: جعل الشيء صالحاً، وهو مؤذن بأنه كان غير صالح، "[14]، وقال:"الإصلاح: جعل الشيء صالحاً، أي: ذا صلاح، والصلاح ضد الفساد، وهو كون الشيء يحصل به منتهى ما يطلب لأجله، فصلاح الرجل: صدور الأفعال والأقوال الحسنة منه، وصلاح الثمرة: كونها بحيث ينتفع بأكلها دون ضر، وصلاح المال: نماؤه المقصود منه، وصلاح الحال: كونها بحيث تترتب عليها الآثار الحسنة"[15].

فحاصل هذه التعاريف متحد، وهو أن الإصلاح معناه:"جعل الشيء صالحاً من أول وجوده أو جعل ما كان فاسداً صالحاً".

والفارق بين الصلاح والإصلاح: أن الصلاح لا يتم ولا يتحقق إلا بالإصلاح، فيكون الإصلاح هو الوسيلة لبلوغ الصلاح، وهو إما من الخالق، أو من الأنبياء

والحكماء، أو من الحكام وأولي الأمر، أو من عامة الناس الذين يتحقق بهم الصلاح[16].

الفرع الثالث: معنى الفساد، الفساد: نقيض الصلاح [17]، يقال: فسد اللحم أو اللبن، يفسد فساداً، أي: أنتن أو عطب، وفسد العقد ونحوه، بطل، وفسد الرّجل: جاوز الصواب والحكمة، وفسدت الأمور: اضطربت وأدركها الخلل، والفساد: التلف والعطب، والاضطراب والخلل، وإلحاق الضرر[18].

وقال الراغب الأصفهاني[19]:"الفساد: خروج الشيء عن الاعتدال، قليلاً كان الخروج عنه أو كثيراً، ويضاده الصلاح، ويستعمل ذلك في النفس والبدن والأشياء الخارجة عن الاستقامة"[20].

وعرفه القرطبي [21]:"الفساد ضد الصلاح، وحقيقته: العدول عن الاستقامة إلى ضدها"[22].

وعرفه ابن عاشور:"الفساد ضد الصلاح، وهو كل فعل مذموم في الشريعة أو لدى أهل العقول الراجحة"[23] .

ويظهر أن تعريف القرطبي هو الراجح؛ لكونه جامعاً لأي عدول في القول والفعل عن الاستقامة المقررة في الشريعة.

الفرع الرابع: معنى الإفساد، قال ابن عاشور:"الإفساد فعل ما به الفساد، والهمزة فيه للجعل، أي: جعل الأشياء فاسدة في الأرض، والإفساد أصله استحالة منفعة الشيء النافع إلى مضرة به أو بغيره، وقد يطلق على وجود الشيء مشتملاً على مضرة وإن لم يكن فيه نفع من قبل، يقال: فسد الشيء بعد أن كان صالحاً، ويقال: إذا وجد فاسداً من أول وهلة، وكذلك يقال: أفسد إذا عمد إلى شيء صالح فأزال صلاحه، ويقال: أفسد إذا وجد فساداً من أول الأمر... والإفساد في الأرض، معناه: تصيير الأشياء الصالحة مضرة كالغش في الأطعمة، ومنه إزالة الأشياء النافعة كالحرق وتحسين الكفر، ومناوءة الصالحين المصلحين..."[24].

وعرف محمد رشيد رضا الإفساد بقوله:"فالإفساد إزالة صلاح أو إصلاح"[25].

وبين بأنه شامل لحياة الإنسان الاجتماعية وللأموال والأنفس والأعراض والأخلاق ونظام العمران، فقال:"إن الإفساد في الأرض يشمل نظام الاجتماع البشري بالظلم، وأكل أموال الناس بالباطل، والبغي والعدوان على الأنفس والأعراض، وإفساد الأخلاق والآداب بالإثم والفواحش الظاهرة والباطنة، وإفساد العمران بالجهل وعدم النظام"[26].

يؤخذ من مجموع ما ذكره ابن عاشور ومحمد رشيد رضا أن الإفساد هو:"جعل الشيء فاسداً من أول وجوده، أو إزالة صلاح أو إصلاح".

وقد توسعت في تعريف معنى الصلاح ببيان ما يراد فيه في المعنى كالاستقامة، وما يلازمه كالإصلاح، وما يضاده ويزيله كالفساد والإفساد؛ لأن المعاني تتضح وتتمايز أكثر بمعرفة أضدادها.

والخلاصة: أن الصلاح المقصود من نزول القرآن هو الاستقامة التامة على منهاجه في الأصول والفروع، وأن العدول عن ذلك يؤدي إلى الفساد المناقض للصلاح.

المطلب الثاني

تحقيق الصلاح هو المقصد الأعلى لجميع الأديان

إن جميع الشرائع السماوية من لدن آدم – عليه السلام – إلى خاتم الرسل – عليهم الصلاة والسلام – جاءت لغرض واحد وهو تحقيق صلاح أحوال الإنسان، فما من دين إلا وجاء يدعو الناس إلى ما فيه صلاحهم في الآجل والعاجل.

يقول ابن عاشور:"مراد الله من الأديان كلها منذ النشأة إلى ختم الرسالة واحد، هو حفظ نظام العالم وصلاح أحوال أهله، فالصلاح مراد الله تعالى... من أجل ذلك لم تزل الشرائع تضبط تصرفات الناس في هذا العالم بقوانين عاصمة عن مغالبة الأميال النفسانية في حالة الغضب والشهوة ومواثبتها على ما تدعو إليه الحكمة والرشد والتبصر في العواقب، وتلك المغالبة والمواثبة تحصل عند التزاحم لتحصيل الملائم

ودفع المنافر، وعند التسابق في ذلك التحصيل والدفع، فوظيفة الدين تلقين أتباعه لما فيه صلاحهم عاجلاً وآجلاً مما قد تحجبه عنهم مغالبة الأميال وسوء التبصر في العواقب و بما يسمى بالعدالة والاستقامة"[27].

وهكذا فإن جميع الشرائع السماوية جاءت لغرض واحد هو تحقيق الصلاح والاستقامة، وكانت ما احتوته من تعاليم هي المرجع في إدراك الصلاح وبلوغه، وقد تدرجت الشرائع في الارتقاء بالإنسان نحو صلاحه حتى بلغت به الكمال مع مجيء الإسلام، "فالشرائع هي مبدأ إرشاد البشر إلى طرق الصلاح منذ ظهر على الأرض، ولم تزل تدرجه في درج الارتقاء كما يربي الطفل في نشأته"[28]، فلما جاء الإسلام آخر الأديان بلغ بالإنسان نهاية الصلاح؛ ذلك لأنه"دين إلهي وهو أفضل الأديان عند الله، وتعاليمه هي مراد الله من نهاية صلاح البشر "[29].

ومن المعلوم أن الرسالات السابقة جاءت مؤقتة بأزمنة وأمكنة خاصة ولأقوام معينين، أما الإسلام فجاء ديناً عاماً في أبعاده الثلاثة الزمانية والمكانية والشخصية، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [آل عمران 85]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران 19]، يقول ابن عاشور مفسراً هذا الحصر:"فالحصر مؤول، إما باعتبار أن الدين الصحيح عند الله حين الإخبار، وهو الإسلام... ولا شك أن وقت الإخبار ليس فيه دين صحيح غير الإسلام؛ إذ قد عرض لبقية الأديان الإلاهية من خلط الفاسد بالصحيح، ما اختل لجله مجموع الدين، وإما باعتبار الكمال عند الله فيكون القصر باعتبار سائر الأزمان والعصور؛ إذ لا أكمل من هذا الدين، وما تقدمه من الأديان لم يكن بالغاً غاية المراد من البشر في صلاح شؤونهم، بل كان ديناً مقتصراً على مقدار الحاجة من أمة معينة في زمن معين، وهذا المعنى أولى محملي الآية؛ لأن مفاده أعم، وتعبيره عن حاصل صفة دين الإسلام تجاه بقية الأديان أتمّ"[30].

وهكذا فإن اختيار الله تعالى ديناً خاتماً عالميّاً يرجع إلى غايته السامية في تحقيق صلاح البشرية في كنف العبودية لله رب العالمين والاستقامة على منهاجه لبلوغ سعادة الدارين.

بعد هذه المقدمة يستحسن أن نبرهن صدقها وصحتها من خلال استقراء أدلة تصل إلى درجة القطع.

الدليل الأول: دلت آيات كثيرة على أن المقصد من بعثة الأنبياء هو إصلاح أحوال أقوامهم، نذكر منها: قوله تعالى عن شعيب – عليه السلام –: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ [هود 88]، فقد بين لقومه أن الغرض من بعثته إليهم هو إصلاح أحوالهم الفاسدة نحو الصلاح والاستقامة.

وقوله تعالى حكاية عن موسى لأخيه هارون: ﴿وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف 142]، فقد أمره بالإصلاح ونهاه عن سلوك سبيل المفسدين، فدلّ ذلك على أن الغرض من رسالته تحقيق الصلاح ودفع الفساد.

الدليل الثاني: دلت آيات كثيرة على النهي عن الفساد وأنه مذموم ومضاد للصلاح المقصود، نذكر من ذلك: قوله تعالى حكاية عن شعيب – عليه السلام –: ﴿فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ [الأعراف 85]، وقال لهم: ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [هود 85]، فقد نهاهم عن الإفساد في الأرض التي خلقها الله تعالى صالحة، وهيأها لقوم صالحين، فإفساد ما فيها بالظلم والبخس مناف للحكمة من خلقها.

فهذه النصوص صريحة وواضحة الدلالة، وقاطعة في أن صلاح البشرية هو المقصود الأعظم من مجئ الشرائع، وأن الفساد والإفساد مضاد لذلك المقصد.

الدليل الثالث: ورود آيات كثيرة في معرض مدح فعل الصلاح والإصلاح والصالحين والتمكين لهم في الأرض، نذكر منها: قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ

وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت 33]، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء 105]، وقوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آَمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ [النور 55]، فهذه النصوص القرآنية تدل دلالة قاطعة على أن الصلاح هو المقصد الأعلى، والغاية السامية، والحكمة البالغة من نزول الشرائع، وقد اقتصرت على بعض النصوص الصريحة في الدلالة على الصلاح، والنهي عن الفساد، دون التطرق إلى النصوص التي دلت عليها بالإشارة والتنبيه، وفي هذا القدر كفاية.

المطلب الثالث

الصلاح المقصود شامل للفرد والمجتمع والعالم

إذا تقرر أن الصلاح هو المقصود الأكبر من الشرائع ومنها شريعة القرآن، فإن هذا الصلاح يشمل الأحوال الفردية والاجتماعية والعالمية، ذلك أن العالم مكون من أمم، والأمة مكونة من مجتمعات، والمجتمع من أفراد، فلا يتحقق صلاح الكل إلا بصلاح الجزء، ومن ثم فلا صلاح للعالم إلا بصلاح المجتمع، ولا صلاح للمجتمع إلا بصلاح الأفراد؛ فإصلاح الفرد لازم لإصلاح المجتمع، وإصلاح المجتمع لازم لإصلاح العالم.

وفي هذا الشأن يقول ابن عاشور:"إن المقصد العام من التشريع... هو حفظ نظام الأمة، واستدامة صلاحه بصلاح المهيمن عليه، وهو الإنسان..."[31]، ويقول:"لما كان الإنسان هو المهيمن على هذا العالم كان في صلاحه صلاح العالم وأحواله؛ ولذلك نرى الإسلام عالج صلاح الإنسان بصلاح أفراده الذين هم أجزاء نوعه، وبصلاح مجموعة وهو النوع كله..."[32].

فالصلاح الفردي هو مبدأ الإصلاح وخطوته الأولى، فإذا صلح الفرد صلح المجتمع؛ ذلك أن بناة المجتمع هم أفراده، والإنسان مدني بالطبع، ومفطور على الحياة مع بني جنسه، فإذا التقى الأفراد الصالحون وتعاشروا نشأ عنهم بلا ريب المجتمع الصالح المنشود.

يقول ابن عاشور:"ولما كان العالم كلاّ مركباً من آحاد الناس ومملوءاً بأفعالهم وهم يقتربون ويبتعدون من هذه الدرجة بمقدار نفوذ سلطان الدين إلى نفوسهم ومساعيهم، كان إصلاحه غير حاصل إلا بإصلاح أجزائه القابلة للإصلاح، وهو إصلاح نفوس آحاد الناس؛ إذ كما كان المبني على الفاسد فاسداً، يكون المبني على الصالح صالحاً"[33] .

أما الصلاح الاجتماعي، فإنه لازم كما ذكرت عن الصلاح الفردي أولا، غير أن هذا غير كاف، فلا يتصور أن بإصلاح الأفراد ينشأ ويولد المجتمع الصالح دون إصلاح إضافي، بل إن اجتماع الأفراد تنشأ عنه حاجات ومصالح اجتماعية لا توجد في الأحوال الفردية، مما يقتضي تشريعاً إصلاحيّاً جديداً يتلاءم مع العلاقات الاجتماعية للأفراد، كعلاقات القرابة، والجوار، والعمل، والزواج، والعلاقات المالية من بيع وشراء وكراء وشركة، وغيرها من الأسباب التي تدعو إلى تلاقي الأفراد واجتماعهم لتحقيق مصالحهم ومنافعهم.

يقول ابن عاشور:"إن المجتمع البشري أو الأمة عبارة عن مجموعة من الناس، هي كل ملتئم من أجزاء، هي الأفراد، فلا جرم كان إصلاح المجتمع متوقفاً بادئ الأمر على إصلاح الأفراد، فإذا صلحت حصل من مجموعتها الصالحة مجتمع يسوده الصلاح، ثم هو محتاج إلى أسباب أخرى من الصلاح زائدة على أسباب صلاح الأفراد، وتلك هي أسباب صلاح نواحي الهيئة الاجتماعية في أحوال علاقات بعض أفرادها ببعض؛ لأن حالات التجمع تبعث عوارض جديدة لم تكن موجودة في أحوال انفراد الأفراد، وقد تطغى بقوتها الاجتماعية على ما تقف عليه الأفراد من الكمالات

فتحجبها أو تزيلها بالمرة بحكم الاضطرار لمسايرة دواعي الأحوال الاجتماعية، فلم يكن بد لشريعة المجتمع من وضع قوانين زائدة على قوانين إصلاح الأفراد"[34]، والمقصود بالقوانين الاجتماعية: قوانين المعاملات التي تضبط تصرفات الناس ببعضهم البعض.

أما الصلاح العالمي، فالمراد به صلاح أحوال الأمم، وهو لازم عن الصلاح الاجتماعي مع ما يضاف من قوانين إصلاحية عالمية، ناشئة عن تعايش الأمم والمجتمعات في الأقاليم المختلفة والقارّات، بطريق يضمن التعاون على المصالح العليا ودرء المفاسد الكبرى، كالتعاون في العصر الحديث على تبادل العلوم والمعارف، والمنافع التجارية والاقتصادية، والخيرات البشرية، وإقامة نظام السلم ودفع الظلم والعدوان، وغيرها من المصالح العليا.

فالله – سبحانه وتعالى – ما خلق الأرض وعمّرها وهيأها إلا لتحقيق صلاح العالم، وقد دلّت آيات كثيرة على أن صلاح العالم مقصود للشارع، مثل: قوله تعالى حكاية عن الملائكة: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ ﴾ [البقرة 30]، فقد علموا أن مراد الله من خلق الأرض هو عمرانها وصلاحها، ولذلك كان استفهامهم مسوقاً للتعجب والتخيّر.

وقوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ [البقرة 30]، دليل على عناية الله تعالى بالعالم الأرضي؛ ولذا جعل فيه خليفة بخلقه – سبحانه وتعالى – في تدبير شؤون الكون، فدل ذلك على أن مراد الله صلاح هذا العالم واستقامة أحواله [35] .

وقوله تعالى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴾ [محمد 22]، وقوله: ﴿وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ ﴾ [البقرة 205]، دليل على أن إصلاح العالم مقصد للشارع، وقوله تعالى رداً على استفهام الملائكة عن خلق خليقته في الأرض: ﴿قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة 30]، أي: أنه عليم بما في البشر من صفات الصلاح والفساد، وأن الصلاح أعظم من الفساد، وبه يحصل المقصد من عمارة الأرض وصلاحها [36].

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء 105]، وقوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آَمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ﴾ [النور 55]، وقوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل 97]، فهذه الآيات بعضها ورد في معرض الامتنان، وبعضها في معرض الوعد، دليل على أن مراد الله من خلق الأرض والإنسان صلاح هذا العالم، فلولا أن صلاحه مقصود ما كان لهذا الامتنان والوعد معنى يذكر [37].

والخلاصة: أن الصلاح المقصود من الشارع شامل للفرد والمجتمع والعالم، وقد أكد هذه الحقيقة الدريني بقوله:"إن الإسلام أولى عنايته الكبرى في سياسته التشريعية أمرين أساسيين هما: الصلاح والإصلاح، تحقيقاً للوجود المعنوي للفرد والمجتمع على أرفع مستوى إنساني؛ لأن مجرد الوجود المادي يشترك فيه الإنسان مع غيره من سائر موجودات هذا الكون، أما الصلاح ففي ذات الإنسان الفرد، تحقيقاً لكماله الذاتي باعتباره إنساناً من حيث الظاهر والباطن، جسدا وعقلاً ووجداناً وشعوراً وإرادة ومسلكاً؛ لأنه هو أداة الإصلاح، وعلى أساس نشاطه يتم تكوين المجتمعات والدول، وهو الذي يشكل الظواهر السياسية والاقتصادية والاجتماعية...وأما من حيث كونه كائناً اجتماعياً فقد تولى هذا التشريع تنظيم حقوقه وحرياته كما تولى تنظيم حقوق المجتمع والدولة أيضاً"[38].

المبحث الثاني

مقصد صلاح الإنسان في المنظور القرآني

اتجه القرآن الكريم اتجاهاً فريداً في إصلاح أحوال الفرد، إصلاحاً شاملاً ومتكاملاً، قائماً على المعرفة الحقيقية للإنسان، ومراعياً الوسطية في تلبية حاجاته

الفطرية، والموازنة بين مختلف النزعات التي تتجاذب النفس الإنسانية، فجمع بين الحاجات الروحية والمادية، وكذا الحاجات الفردية والاجتماعية في اعتدال، وبذلك تحقق الإصلاح المطلوب.

ويأتي هذا المبحث ليكشف بوضوح وجلاء اتجاه القرآن في إصلاح الفرد ومنهجه القائم على الوسطية والاعتدال، وقد قسمته إلى المطالب الآتية:

المطلب الأول: صلاح الإنسان مقصد قرآني ثابت بالاستقراء.

المطلب الثاني: وسطية القرآن في تحقيق صلاح الإنسان.

المطلب الثالث: المبادئ القرآنية لحفظ الحقوق الفردية والجماعية.

المطلب الأول

صلاح الإنسان مقصد قرآني ثابت بالاستقراء

لما كان العالم يتكون من مجتمعات، والمجتمع يتكون من أفراد، كان صلاح العالم متوقفاً على صلاح مجتمعاته، وصلاح المجتمع متوقف على صلاح أفراده؛ ذلك لأن المبني على الصلاح ينتج صلاحاً حتماً، والمبني على الفساد ينتج فساداً لا محالة، وهذه الحقيقة المسلم بها عقلا وواقعياً هي قاعدة التربية والإصلاح التي سلكها الأنبياء والرسل، ورجال الإصلاح في القديم والحديث وجميع الشرائع اتبعت هذا المنهج الإصلاحي في التدرج من الفرد إلى المجتمع إلى العالم، وقد بلغ أوج هذا الإصلاح وكماله على يد شريعة القرآن التي جاءت رحمة للعالمين.

وإن الناظر في مجموع التشريع القرآني يجد منه ما هو في مصلحة الأفراد، ومنه ما هو في مصلحة المجتمع، ومنه ما هو في مصلحة العالم.

فالتشريع الفردي يقصد منه الصلاح الخاص بالأفراد، في عقولهم وأنفسهم وأبدانهم؛ وذلك لأن صلاح الفرد متوقف على صلاح هذه العناصر المكونة لذات الإنسان وشخصيته.

ويمكن تصنيف النصوص الواردة في القرآن حول الصلاح الفردي إلى أنواع:

النوع الأول: نصوص تتحدث عن الإنسان عموماً، فتخاطبه أو تصف أحواله في خمس وستين موضعاً في القرآن [39]، وهي ذات دلالات متنوعة بحسب الغرض المقصود منها، كما يأتي:

- جاء بعضها دالاً على مبدأ الخلق والنشأة، ويقصد منها بيان أصل الإنسان، ومصدر خلقه.
- ودلّ بعضها على خصائص الإنسان التي كرمه الله تعالى بها، وفاق سائر المخلوقات، كالصورة القويمة، والإدراك العقلي.
- ودلّ بعضها على مسؤولية الإنسان التكليفية والعملية، وأنه مكلف ومسؤول عن جميع أفعاله.
- ودلّ بعضها على نوازع الإنسان، وصفاته، وانفعالاته الباطنة، كالضعف واليأس والظلم والعجلة والخوف والجهل والفرح والتمني والهلع والطغيان.. الخ.
- وورد بعضها في معرض حث الإنسان على النظر والتأمل والتفكير في نفسه وفي موجودات العالم.

هذه أهم الجوانب التي عالجت موضوع الإنسان عموماً، وهي مقدمة ضرورية لتحقيق صلاح الفرد؛ لأنه ما لم تعرف حقيقة الإنسان كما خلقه الله – سبحانه وتعالى – لا يتأتى إصلاح أحواله الفردية، والاجتماعية، والعالمية [40].

النوع الثاني: نصوص تتحدث عن النفس، فتخاطبها وتتعرض لصفاتها وأحوالها، في مائتين وتسعين موضعاً في القرآن [41]، بصيغ مختلفة، وذات دلالات متنوعة، بحسب الغرض المقصود منها، يمكن حصرها في الجوانب الآتية:

- بيان نشأتها ومراحل تطورها و ومصيرها.
- بيان ما جبلت عليه من التقوى والفجور، والصلاح والفساد.
- بيان صفاتها كالنفس الأمارة بالسوء، والنفس اللوامة، والنفس المطمئنة الراضية.
- بيان أن النفس مكلفة، ومسؤولة عما كسبت ورهينة به.

– بيان أن تكليف النفس واقع موقع الوسط الذي لا مشقة فيه، ولا يلحق بها الأذى والعنت.

– بيان أن لا تبعة على النفس نحو غيرها، وأنها غير مؤاخذة بأفعال غيرها.

– بيان حرمة النفس وأنه لا يجوز الاعتداء عليها، فهي معصومة عند الله تعالى.

– وجوب المحافظة على النفس بالغذاء والكساء والدواء والإيواء [42].

هذه أهم الجوانب التي تحدث عنها القرآن حول النفس، وهي تدل على مبلغ عنايته بإصلاحها والحفاظ عليها.

النوع الثالث: نصوص تتحدث عن العقل الإنساني، وأنه فضيلة إنسانية كرمه الله تعالى بها، فتخاطبه وتحثه على النظر والتدبر والتفكير في نفسه، وفي ما حوله من موجودات العالم، وهي ذات دلالات متنوعة، يمكن حصرها فيما يأتي:

– جاء بعضها دالاً على فضيلة العقل وتكريمه.

– بيان أن العقل مناط التكليف، وأن غير العاقل ليس أهلاً لذلك.

– دعوة العقل إلى طلب العلم والمعرفة، عن طريق الكتابة والقراءة، والبحث والتفكير.

– تحرير العقل من ربقة التقليد والاتباع للغير من غير حجة ولا برهان.

– بناء التفكير العقلي على العلم القائم على الدليل، لا على الظنون والأوهام.

– حفظ العقل من المسكرات والمخدرات، وسائر الأمراض والعلل التي تعيقه عن النظر والتفكير.

– توبيخ الذين عطلوا عقولهم، فلم يستعملوها فيما خلقت له، فكانوا كالأنعام في عدم التفكير [43].

النوع الرابع: نصوص جاءت في معرض الحديث عن أهمية المحافظة على جسم الإنسان، وإشباع حاجاته؛ لكونه ضرورياً لحياة الأفراد، وهي ذات دلالات متنوعة، يمكن حصرها في الجوانب الآتية:

- إشباع الحاجات الجسمية من أكل وشرب ولباس وزواج ومأوى، وغيرها من متطلبات الحياة.
- حفظ الجسم من الأمراض، ومنعه من تناول ما يضره، كالميتة، والدم المسفوح، ولحم الخنزير، والمسكرات، وسائر الخبائث.
- رفع الحرج والمشقة عن جسم الإنسان، بتخفيف التكاليف، وتشريع الرخص، كالفطر في رمضان، والقصر في الصلاة الخاص بالمرضى والمسافرين.

هذه أهم الجوانب التي تدل على مدى عناية القرآن بجسم الإنسان والحفاظ عليه.

النوع الخامس: نصوص وردت في معرض التشريع لما يصلح الفرد ويحقق صلاحه، وهذا ذات دلالات متنوعة، نذكر منها:

- الأمر بالإيمان والعمل الصالح الذي هو سبب زكاة وصلاح العقول والنفوس [44].
- النهي عن الشرك والكفر وأعمال السيئات والمعاصي التي هي سبب فساد الأفراد في عقولهم وأنفسهم [45].
- الأمر بالعبادات من صلاة وصيام وزكاة وحج من أجل إصلاح النفس وتزكيتها [46].

النوع السادس: نصوص وردت لإبراز البعد الاجتماعي لشخصية الفرد، ومدى ارتباطه بغيره من الأفراد داخل المجتمع؛ لتبين أن صلاح الفرد لا يكتمل إلا في وسط اجتماعي، يتبادل معه الحقوق والواجبات، مثل: التشريعات العائلية، والمالية، والعقابية، والقضائية، والسياسية، وغيرها من أنواع التشريع الاجتماعي؛ وذلك لأن الفرد مكون من شخصيتين:

1 – شخصية فردية مستقلة، يسأل فيها عن أفعاله الخاصة، ولها شرعت التكاليف الفردية، من صلاة وزكاة وصيام وحج، وقواعد الإيمان..الخ.

2 – شخصية اجتماعية، يسال فيها عن علاقاته بغيره من أفراد المجتمع، ولها شرعت التكاليف الاجتماعية، كالواجبات العائلية من نفقة وإيواء وإحسان عشرة وغيرها.

والحكمة من ازدواج شخصية الإنسان الفردية والاجتماعية، أن سعادة الفرد وصلاحه لا تتحقق إلا في بيئة اجتماعية توفر له أسباب ووسائل هذا الصلاح، وكذا سعادة المجتمع لا تتم إلا بسعادة أفراده وصلاحهم؛ لأنه لا يتصور قيام مجتمع صالح من غير أفراد صالحين، فتبين من هنا وجه العلاقة الحكيمة القائمة بين الفرد والمجتمع[47].

هذه أهم أنواع النصوص الواردة في معرض الحديث عن الإنسان في القرآن، والتي نزلت لتحقيق الصلاح الفردي، وهي متنوعة إلى ما يتعلق بإصلاح عقله، ونفسه، وجسمه، مما يدل على أن الصلاح الفردي مقصد عام من مقاصد القرآن، وأنه شامل للمقاصد الخاصة الثلاثة: مقصد إصلاح العقل، ومقصد إصلاح النفس، ومقصد إصلاح الجسم.

فالإنسان في المنظور القرآني عقل وروح وجسم، كما أنه فرد يعيش داخل مجتمع، فجدير أن يكون إصلاحه شاملاً للجوانب الروحية والمادية، الفردية منها والاجتماعية، وبذلك يتحقق الإصلاح المقصود.

المطلب الثاني

وسطية القرآن في تحقيق صلاح الإنسان

في هذا المطلب أحاول بيان بطلان وفساد الاتجاهات الإصلاحية التي قامت على النظرة الجزئية للإنسان، كتلك التي اقتصرت على الجانب الروحي، أو التي اقتصرت على الجانب المادي، وكذلك التي قامت على تغليب الجانب الفردي أو تغليب الجانب الاجتماعي في الإنسان، ثم أبين النموذج القرآني في إصلاح الفرد القائم على التوازن بين سائر نزعاته، الروحية والمادية، وكذا الفردية والاجتماعية.

فساد الاتجاه الروحي الخالص: عارض القرآن الكريم أنصار هذا الاتجاه الذين حرموا طيبات ما أحل الله لهم، جيث دعا القرآن إلى إشباع حاجات الإنسان المادية من أكل ومشرب ومسكن وملبس وزواج وزينة وسائر الطيبات والمباحات.

أباح الأكل والشرب في قوله تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا ﴾ [الأعراف 31]، وأباح الملبس في قوله: ﴿يَا بَنِي آَدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآَتِكُمْ وَرِيشًا ﴾ [الأعراف 26]، وأباح المسكن بقوله: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ﴾ [النحل 80]، وأباح النكاح بقوله: ﴿فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ﴾ [النساء 3]، وأباح التمتع بأنواع الزينة مستنكراً على من حرمها، قال تعالى: ﴿يَا بَنِي آَدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آَمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآَيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف 31، 32]، وأباح التمتع بجمال الكون ومظاهر الطبيعة، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ ﴾ [الحجر 16]، وقال: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴾ [النحل 6]، وأباح عموم الطيبات في قوله: ﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ ﴾ [المائدة 5].

ونهى القرآن عن الكسل والتواكل والعزلة عن الكون والمجتمع، فأوجب العمل والسعي والمشي في الأرض وإعمار الكون، واستغلال خيراته ومنافعه بما يعود على الإنسان بالخير والصلاح، قال تعالى: ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ ﴾ [التوبة 105]، وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا﴾ [الملك 15]، وقال: ﴿وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ﴾ [القصص 77].

كل هذه النصوص صريحة في أن كل ما خلقه الله تعالى وأوجده، هو لمصلحة الإنسان، وأنه مطالب بالانتفاع به في حدود ما شرعه الله تعالى تحقيقاً للمصلحة ودفعاً للمفسدة، وهي دليل على بطلان الاتجاه الروحي الخالص.

فساد الاتجاه المادي الخالص: وكذلك ذم القرآن أنصار هذا الاتجاه الذين تجاوزوا حدود الشرع والعقل في الاستمتاع بطيبات الحياة الدنيا وزينتها، فأسرفوا فيها إلى حدّ طغيان الهوى والشهوات، وقد أنكر الله تعالى على أتباع هذا الاتجاه في العديد

من الآيات، منها: قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [هود 15، 16]، وقال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ ﴾ [محمد 12]، فهذه الآيات ذمت أتباع الاتجاه المادي الذين استولى على قلوبهم حب الدنيا على الآخرة.

وسطية القرآن في الموازنة بين النزعتين الروحية والمادية:

يقوم منهج القرآن في تحقيق التوازن بين البعدين الروحي والمادي في الإنسان على الحقيقتين الآتيتين:

الأولى: الإنسان في مفهوم القرآن وفلسفته مكون من روح ومادة، ولكل منهما مطالب يحتاج إليها لتحقيق صلاحه وكماله.

الثانية: لا سعادة للإنسان ولا صلاح له، فرداً ومجتمعاً إلا بتلبية حاجات الروح والجسم معاً في اعتدال واتزان دون إفراط ولا تفريط.

فبخصوص الأولى ذكر القرآن أن الإنسان ذو طبيعة ثنائية مزدوجة روحية ومادية، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ [الحجر 27، 28]، فالصلصال يمثل الجانب المادي المتمثل في مطالب الجسم، والنفخة الروحية تمثل الجانب الروحي فيه.

وبخصوص الحقيقة الثانية فإن الحكمة من التكوين الثنائي المزدوج أن صلاح الإنسان لا يتحقق إلا باجتماعهما معاً، فالجانب المادي يستحثه على العمل والكسب والتفكير والانتفاع بخيرات الكون ومنافعه، والجانب الروحي فيه يستحثه على عبادة الله وطاعته والتقرب منه، وتحصيل الفضائل الخلقية والقيم الرفيعة بما يعود على الفرد والمجتمع بالخير والسعادة في الدنيا والآخرة [48].

وقد دلت نصوص القرآن على الاتجاه الوسطي في فلسفة القرآن الإصلاحية، كقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ [البقرة 143]، فالوسطية عند كثير من

المفسرين يراد بها الاعتدال بين الروحانية والمادية، فلم تهمل مطالب الروح ولا مطالب الجسم [49]، وكقوله تعالى: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ [القصص 77]، أي:"أطلب فيما أعطاك الله من الأموال الدار والآخرة فأنفقه فيما يرضاه الله... ولا تضيع حظك من دنياك في تمتعك بالحلال وطلبك إياه"[50]، وقال تعالى ﴿فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [البقرة 201، 202]، فقد قسم الله تعالى اتجاهات الناس في هذه الحياة إلى صنفين:

الصنف الأول: الصنف الذي يريد الدنيا وحدها، وهم الماديون الذين اقتصروا على الجانب المادي الخالص.

الصنف الثاني: الصنف الذي يجمع بين الدنيا والآخرة، وهم الوسطيون الذين جمعوا بين المطالب الروحية والمادية.

ولم يشر القرآن إلى الصنف الثالث بحسب التقسيم العقلي، وهم الذين أهملوا الدنيا وتمسكوا بالآخرة، أي: أصحاب الاتجاه الروحي الخالص، وإهمال القرآن لذكره دليل على أنه مناف لفطرة الإنسان وطبيعة خلقته [51].

وقال تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾ [الجمعة 10]، ففي هذه الآية دعوة صريحة إلى العمل والكسب عقب الانتهاء من صلاة الجمعة الأسبوعية، وفي هذا إشارة إلى وسطية القرآن في الجمع بين المطالب الروحية والمادية.

فالتوازن هو سمة القرآن، وأساس منهجه الإصلاحي في تلبية حاجات الروح والجسم معاً دون إفراط أو تفريط، تحقيقاً للعدل والوسطية، كما يظهر من خلال الأمثلة الآتية:

أمر القرآن بالأكل والشرب باعتدال دون إسراف وتبذير، قال الله تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾ [الأعراف 31]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا﴾ [الإسراء 31]، وأمر سبحانه بالإنفاق مع القوامة دون إسراف ولا تقتير: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴾ [الفرقان 67]، وأمر بالعبادات من صلاة وصيام، ورفع الحرج والمشقة عند المرض والسفر والعجز، فأباح الفطر والقصر والتيمم، وأباح عند الضرورة أكل الميتة، وغيرها من المحظورات؛ حفظاً للنفس من الهلاك، وهكذا دلّ هذا الاستقراء على مقصد القرآن الكريم في تحقيق التوازن بين البعدين الروحي والمادي في الإنسان؛ تحقيقاً لصلاحه وسعادته في الدنيا والآخرة.

وسطية القرآن في الموازنة بين النزعتين الفردية والاجتماعية: يقوم منهج القرآن على مبدأ التوفيق بين المصالح الفردية والاجتماعية معاً، موازناً بينهما بقدر الإمكان، والتوفيق بينهما عند التعارض، من خلال المبادئ الآتية:

1 – الإنسان في منظور القرآن ذو شخصية مزدوجة: فردية واجتماعية معاً، فالشخصية الفردية يسأل فيها عن أفعاله الخاصة، ولها شرعت التكاليف الفردية، والشخصية الاجتماعية، يسأل فيها عن علاقاته الاجتماعية بغيره من أفراد المجتمع، ولها شرعت التكاليف الاجتماعية، ومن ثم لا سعادة للفرد إلا في ظل المجتمع، ولا سعادة للمجتمع إلا في ظل التعاون أفراده.

2 – الإنسان خلق مفطوراً على الميل نحو ذاته والآخرين معاً، فالميل إلى حب الذات مركوز في فطرة الفرد، والميل إلى حب الآخرين متأصل كذلك في فطرة الإنسان، هذا الميل متأصل بحكم الخلقة، وينمو بالممارسة والعمل.

3– لا يوجد أي تنافر أو تعارض بين النزعتين الفردية والاجتماعية؛ لأن كلا منهما يكمل الآخر ويعضده، من أجل تحقيق المصالح المشتركة، فالتنافر الحاصل مفتعل.

4 – إن الضرر كل الضرر في إهمال الحق الفردي، أو الحق الاجتماعي، وإن كل الخير والصلاح في تلاقي الحقين معاً، فلا يعلو أحدهما على الآخر إلا فيما يعود بالنفع والخير.

5 – مقاومة كل النزعتين الفردية والاجتماعية إذا حادتا عن حد الاعتدال، فتقيد المصلحة الفردية إذا أضرت بالمصلحة الاجتماعية، وكذا تقيد المصلحة الاجتماعية إذا أضرت بالمصلحة الفردية، وبذلك تحفظ الحقوق الفردية والاجتماعية معاً.

6 – التنسيق بين الحقين الفردي والاجتماعي عند التعارض، من خلال المبادئ والقواعد والنظريات التي شرعت لكفاية الحقين معاً كنظرية التعسف في استعمال الحق [52].

المطلب الثالث

المبادئ القرآنية لحفظ الحقوق الفردية والجماعية

إن فكرة الحقوق محكومة بمجموعة من القواعد التنظيمية لحمايتها، نذكر منها:

1 – الحق منحة من رب العالمين، قصد الشارع من منحها تحقيق مصالح عباده الفردية والاجتماعية.

2 – الأصل في الحق التقييد وليس الإطلاق، والعبرة بما قيده الشارع؛ لأنه مصدر الحق وواهبه.

3 – الأصل في تصرف صاحب الحق أن يكون موافقاً لمقصد الشارع، من جلب للمصالح أو درء للمفاسد، فمن تصرف في حقه في غير ما قصده الشارع بالتعسف كان تصرفه باطلاً؛ لمناقضته قصد الشارع.

4 – الحق وسيلة لتحقيق ما قصده الشارع من مصالح، وليس غاية في ذاته، ومن ثم فليس لصاحب الحق أن يتصرف فيه وفق هواه دون غاية مقصودة.

5 – إن لكل من الفرد والجماعة حقاً يختص به، وقد قسم علماء الأصول الحق إلى حقين: حق العباد ويراد به الحق الفردي، وحق الله ويراد به الحق الجماعي أو الحق العام.

6 – الحق العام مقدم على الحق الخاص عند التعارض، ولو لحق صاحب الحق الخاص ضرر؛ لأنه ينجبر بالتعويض؛ ولأن في رعاية الحق العام حفظاً للحق الخاص ضمناً؛ ولذا منعت الشريعة بعض الحقوق الخاصة عند تعارضها مع الحقوق العامة، كمنع الاحتكار، والنهي عن تلقي الركبان، وبيع الحاضر للبادي، ووجوب التسعير.

ما شرعه القرآن للموازنة بين النزعتين الفردية والاجتماعية:

لم يكتف القرآن بتأصيل المبادئ والقواعد لحفظ الحق الفردي والاجتماعي، بل شرع لها من الأحكام ما يضمن العمل بها في حياة المكلفين.

في مجال حفظ الحق الفردي: منح الله تعالى للأفراد جملة من الحقوق يتمتعون بها، أهمها:

1 – حق الحياة: للفرد الحق أن يحيا حياة طيبة آمنة على نفسه من أي اعتداء، فهو معصوم الدم.

2 – حق العرض: للفرد الحق في العيش الكريم، فلا حق لأحد في إلحاق الأذى به أو إهانته.

3 – حق التملك: للفرد الحق في تملك ما شاء من المباحات في المأكل والمشرب والمسكن وغيرها.

4 – حق الزواج: للفرد الحق في الزواج الحلال، والتمتع بامرأته، وحق التعدد إلى أربع نسوة.

5– حق التدين: للفرد الحق في الإيمان بالله تعالى، وعبادته من غير إكراه.

6 – حق الرأي والتفكير: للفرد الحق في التفكير والنظر والاجتهاد من أجل معرفة أسرار الكون وعمارته وتحقيق مصالحه.

في مجال حفظ الحق الاجتماعي: لقد أقر القرآن الحقوق الاجتماعية، وأصلها في نصوص، وشرع لها من الأحكام ما يحفظها ويصونها ويدرأ عنها الاختلال، من أهمها: **أداء الأمانات،** قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا ﴾ [النساء 58]، وأداء الشهادة لإثبات الحقوق، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ ﴾ [النساء 135]، وأداء حقوق القرابة، قال تعالى: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ ﴾ [النساء 36]، وأداء حقوق الفقراء والمساكين، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ ﴾ [التوبة 60].

هذه خلاصة أسس صلاح الإنسان في منظور القرآن المنبثقة من نصوصه ومقاصده.

أهم النتائج

1- الصلاح ضد الفساد، وحقيقته الاستقامة التامة على منهاج الشريعة في الأصول والفروع، وأن الإصلاح هو الوسيلة لبلوغ الصلاح، فالإصلاح وسيلة والصلاح غاية.

2- تحقيق الصلاح هو المقصد الأعلى لجميع الأديان والشرائع، وقد ثبت ذلك بأدلة كثيرة بلغت حد التواتر المفيد للقطع واليقين.

3- الصلاح المقصود يمتاز بالعموم والشمول والاستغراق للأحوال الفردية والاجتماعية والعالمية.

4- مقصد الصلاح يأتي في مقدمة المقاصد الشرعية وأعلاها، وهو مهيمن على الكليات الضرورية والحاجية والتحسينية.

هوامش

([1]) هو: السيد محمد رشيد رضا، شامي النسبة، من قرية القلمون، من أعمال طرابلس الشام، صاحب مجلة المنار، المعلمة الإسلامية الكبرى التي لا يستغني مسلم في هذا العصر عن اقتنائها، له مؤلفات منها: تفسير المنار، والوحي المحمدي والوحدة الإسلامية، ومقالات كثيرة أخرى، توفي سنة 1354هـ. يُنظر حاضر العالم الإسلامي، ج1، ص284.

([2]) هو: محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن محمد بن محمد الشاذلي بن عبدالقادر بن محمد بن عاشور، تخرجت على يديه أجيال كثيرة، قال عنه الشيخ العلامة محمد البشير الإبراهيمي: "علم من الأعلام الذين يعدهم التاريخ المعاصر من ذخائره.. فهو إمام متبحر في العلوم الإسلامية، مستقل في الاستدلال، واسع الثراء من كنوزه" كان عضوا في مجمع اللغة العربية بالقاهرة سنة 1950م، والمجمع العلمي العربي بدمشق عام 1955م، من مؤلفاته: مقاصد الشريعة الإسلامية، توفي سنة 1973م. يُنظر تراجم المؤلفين التونسيين، ج3، ص304.

([3]) يُنظر: جمال الدين بن منظور، لسان العرب دار المعارف،مصر، د.ط، د.ت، ج. 4، ص2479،ومحمد علي التهاوني، كشاف اصطلاحات الفنون، تحقيق: لطفي عبد البديع، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، د.ط، 1382هـ / 1963م، ج4، ص217.

([4]) يُنظر: أبو جيب، القاموس الفقهي، ص214، 215.

([5]) يُنظر: محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر،تونس، د.ط، 1984م. ج.14، ص317.

([6]) يُنظر: المصدر نفسه، ج.12، ص176.

([7]) يُنظر: المصدر نفسه، ج.24، ص229.

([8]) يُنظر: المصدر نفسه، ج.18، ص283.

([9]) يُنظر: المصدر نفسه، ج.18، ص283.

([10]) يُنظر: ابن منظور، لسان العرب، ج.4، ص2479.

([11]) يُنظر: أبو جيب، القاموس الفقهي، ص214، 215.

([12]) يُنظر: الراغب أبو القاسم الحسين محمد الأصفهاني، معجم مفردات القرآن، دار المعرفة، بيروت، ط.1، 1414 هـ / 1994م، ص284.

([13]) يُنظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج.1، ص285.

([14]) يُنظر: المصدر نفسه، ج.9، ص253.

([15]) يُنظر: المصدر نفسه، ج.2، ص255، 256.

([16]) يُنظر: محمد رشيد رضا، تفسير القرآن الكريم، دار المعرفة، بيروت، ط.2، د.ت، ج.8، ص527.

([17]) يُنظر: ابن منظور، لسان العرب، ج.5، ص3412.

([18]) يُنظر: مجمع اللغة العربية، معجم الوسيط، دار المعارف، مصر،ط.2، د.ت، ص379.

([19]) هو: شمس الدين أبو الثناء محمود بن عبد الرحمن بن أحمد بن أبي بكر بن علي الأصفهاني، كان حريصاً على العلم، وعلى عدم ضياع وقته، إماماً بارعاً في العقليات، عارفاً بالأصلين، فقيهاً، محبّاً لأهل الخير والصلاح، ألف في شتى العلوم ومختلف الفنون، من كتبه: أنوار الحقائق الربانية في تفسير الآيات القرآنية، وبيان المختصر في أصول الفقه، توفي سنة 749هـ. يُنظر شذرات الذهب، ج.5، ص406 .

([20]) يُنظر: الراغب الأصفهاني، معجم مفردات القرآن، ص379.

([21]) هو: أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري، الحزرجي، الأندلسي، القرطبي المالكي، المفسر الشهير، له مؤلفات كثيرة، منها: جامع أحكام القرآن في التفسير، والتذكار في أفضل الأذكار، توفي سنة 671هـ. يُنظر: الديباج، ج.2، ص308.

([22]) يُنظر: أبو عبدالله محمد القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، دار الفكر العربي، مصر، ط.3، 1378هـ / 1967م، ج.1، ص202.

([23]) يُنظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج.20، ص190.

([24]) يُنظر: المصدر نفسه ج.1، ص284، 285.

([25]) يُنظر: رشيد رضا، تفسير المنار، ج.8، ص526، 527.

([26]) يُنظر: المصدر نفسه، ج.8، ص460.

([27]) يُنظر: محمد الطاهر ابن عاشور، أصول النظام الاجتماعي، الدار العربية للكتاب، تونس، د.ط، د.ت، ص10.

([28]) يُنظر: المصدر نفسه، ص11.

([29]) يُنظر: المصدر نفسه، ص41.

([30]) يُنظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج.3، ص190.

([31]) يُنظر: محمد الطاهر ابن عاشور، مقاصد الشريعة، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، د.ط، د.ت، ص63.

([32]) يُنظر: المصدر نفسه، ص64.

([33]) يُنظر: ابن عاشور، أصول النظام الاجتماعي، ص10.

([34]) يُنظر: المصدر نفسه، ص42، 43 .

([35]) يُنظر: ابن عاشور، أصول النظام الاجتماعي، ص41، 42، والتحرير والتنوير، ج.1، ص403.

([36]) يُنظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج.1، ص406 .

([37]) يُنظر: ابن عاشور، مقاصد الشريعة، ص64.

([38]) يُنظر: فتحي الدريني، خصائص التشريع في السياسة والحكم، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط.2، 1407 هـ / 1987م، ص107.

([39]) يُنظر: محمد فؤاد عبدالباقي، المعجم المفهر □ لألفاظ القرآن الكريم، دار الجيل، بيروت، د.ط، د.ت، ص93، 94.

([40]) يُنظر: المصدر نفسه، ص93، 94.

([41]) يُنظر: المصدر نفسه، ص712.

([42]) يُنظر: المصدر نفسه، ص712.

([43]) يُنظر: المصدر نفسه، ص474 .

([44]) يُنظر: المصدر نفسه، ص483 .

([45]) يُنظر: المصدر نفسه، ص606.

([46]) يُنظر: المصدر نفسه، ص442.

([47]) يُنظر: محمود شلتوت، من توجيهات الإسلام، دار الشروق، القاهرة، ط.7، 1407هـ / 1987م، ص467.

([48]) يُنظر: محمد عبد الرحمن بيصار، العقيدة والأخلاق وأثرهما في حياة الفرد والمجتمع، منشورات المكتبة العصرية، بيروت، د.ط، 1980م، ص236.

([49]) يُنظر: أبو زهرة، المجتمع الإنساني في ظل الإسلام، دار الفكر العربي، القاهرة، د.ط، د.ت، ص148.

([50]) يُنظر: محمد بن علي الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علمي التفسير، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، ط2، 1383هـ / 1963م، ج.4، ص186

([51]) يُنظر: شلتوت، من توجيهات الإسلام، ص105 .

([52]) يُنظر :فتحي الدريني، الحق ومدى سلطان الدولة في تقييده، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط.3، 1404هـ / 1984م، ص17 .